جنبًا إلى جنب

إذا كان يقال وراء كل رجل عظيم امرأة فإنه يصح القول أيضا بأن وراء كل امرأة عظيمة زوج، ولا يصدق هذا القول قدر ما يصدق فى حق الفنانة المصورة سونيا ديلوناى المولودة عام ١٨٨٦، فهذه الفنانة التى دخلت تاريخ الفن الحديث، وسجلت اسمها فيه، ما كانت تبلغ ذلك إلا بفضل زوجها الفنان المصور روبير ديلوناى الذى شجعها على المضى فى طريقها، ووقفا جنبًا إلى جنب يبحثان عن أساليب جديدة للتعبير، ويجربان معًا إمكانات «اللون» وقدرته على النفاذ إلى العين ومن بعدها إلى الوجدان والروح، ويطرقان معًا باب عالم من الألوان البحت، يلجانه ويجوسان بين أرجائه مزودين بخبرة ومعرفة وثقافة، ويؤازرهما حب كل منهما للآخر واقتناعه به.

قصة حب:

ولنرجع إلى أيام شباب سونيا ديلوناى لنعرف قصة حبها لروبير ديلوناى وزواجها منه، نشأت سونيا وتربت فى بيت عمها فى سان بطرسبرج، وكانت تلميذة متفوقة فى الرياضيات فى وقت لم يكن تفوق الفتيات فى هذا المجال بالأمر المألوف بعد، واعتزمت أن تتفرغ

للرياضيات وتكرس حياتها لدراستها والاشتغال بها، إلا أن نبوغها فى الرياضيات صاحبه حس فنى مرهف وشغف شديد بالرسم، وقد استطاع مدرسها أن يقنع أهلها بأن ابنتهم سيكون لها مستقبل باهر فى التصوير، فسافرت سونيا إلى ألمانيا بعد أن لان أبوها ونزل على رغبة ابنته، وتشجيع مدرس الرسم الذى كان أيضا عالمًا فى «الأثنولوجيا» أى علم أصول السلالات البشرية وأجناس الأمم، وبعد سنتين من الدراسة الصارمة الجادة فى معاهد الفن بألمانيا، يممت الفنانة الشابة صوب باريس عاصمة الفنون، حيث التحقت بأكاديمية «دى لاباليت» التى كان يؤمها فنانون سيصبح لهم شأن كبير فيما بعد من أمثال أوزنفان وسيجونزاك وأصدقائهما. وتحت تأثير كل من جوجان وفان جوج، بحثت سونيا عن أسلوب خاص بها يكفل لها التحرر والتعبير القوى من خلال التركيز على اللون وتصعيده إلى أعلى نبراته، وتعرفت بالناقد الألمانى الأصل الذى استوطن العاصمة الفرنسية وهيلم أوهد الذى تحمل إحدى قاعات متحف الفن الحديث بباريس اسمه اعترافًا بفضله فى تشجيع الاتجاهات الحديثة واكتشاف الفنانين الأصلاء المغمورين، وإلى أوهد يعزى الفضل فى اكتشاف الفنانين البدائيين المحدثين وفى مقدمتهم الجمركى الفقير، «هنرى روسو» وعرضت سونيا طرف أوهد الذى افتتح صالة للعرض تجمع فيها آنذاك «المصورون الوحشيون» وقد كانت «التكعيبية» فى طريقها إلى الظهور.

وجدت سونيا بذلك نفسها عند مفرق طريق تدور من حولها دوامات الفن الحديث، وتهب تيارات هذا الفن مكتسحة مدمرة، وكانت الفنانة الشابة بحاجة إلى من تثق فيه، وتتشبث به، إلى أن التقت بروبير ديلوناى

الذى كان متحمسًا للفن ومشربا بحب الشعر، وشاركته اهتماماته الفنية والأدبية ثم تزوجته عن اقتناع وحب عام ١٩١٠، وبدأ الزوجان الفنانان يشقان طريقهما بخطى واثقة وقلب نابض بالطموح والإيمان وبالقدرة على العطاء، وحل محل التشتت والقلق فى قلب سونيا أمل ورسوخ وثقة، وبدأت الرؤية تتضح لدى الزوجين فى كفاحهما الفنى المشترك، وفى ظل من حماس الزوج وحيويته الفائقة شيدت سونيا أسلوبها الذاتى فى التعبير، ولخصت فيه تجربتها مع كل من «التكعيبية» و«الأورفية»، واستخدمت أسلوبها الذاتى هذا من تصميم أغلفة الكتب، والوسائد، والطنافس، وورق الحائط، وقد استخدمت أسلوبها هذا أيضا فى تصميم ملابسها من ألوان عصرية لا تدرج فيها، ويأتى تناغمها من تتابعها على السطح فى صراحة ومباشرة وتضاد وحشى، ويرجع الفضل فى هذه التوليفة اللونية الجريئة إلى استيعاب سونيا ديلوناى لتعاليم «الوحشية» التى تستخدم اللون مباشرة لبناء اللوحة دون اعتداد بأن يتطابق اللون فى اللوحة باللون فى الطبيعة، فليس ثمة ما يمنع فى لوحة وحشية أن يكون البحر أصفر اللون ما دام فى ذلك موجب من بناء اللوحة، ولتعاليم «التكعيبية» التى جعلت اللوحة على الرغم من تجاوبها بالأشياء الواقعية، مثل القدح والزجاجة والعلبة - وهذه وما شاكلها تسمى بالطبيعة الصامتة - ابتكارًا تشكيليًا، كما أوغلت التكعيبية فى لصق الخامات الممكنة بسطح اللوحة لإعطاء مظهر - خداع على أى حال - بأن الشىء المرسوم قد استقى من الطبيعة رأسًا، ولتعاليم «الأورفية» وهذا اصطلاح أطلقه الشاعر جيوم أبوليتير (١٨٨٠ - ١٩١٨)، الذى كان له فضل النقد والتوجيه على صانعى الفن الحديث - أطلقه على تجارب روبير ديلوناى

ورفاقه الذين أرادوا أن يفلتوا من صرامة الخطوط التكعيبية ليطلقوا العنان للون خالصًا نقيًّا صريحًا مباشرًا، وأتاحوا بإعلائهم ديناميكية اللون وحيويته للفن الحديث أن يتحرر من إسار النقل عن الأشكال الطبيعية واحتذائها، من كل هذه التعاليم استفادت سونيا ديلوناى، وتحت رعاية زوجها استطاعت أن تطبق اكتشافاتها التشكيلية فى مجالات كثيرة، منها الديكور والأغلفة والملابس، وفى معارضها غطت الحوائط بلوحات انتفت عنها نوايا النقل عن الطبيعة، وامتلأت بتشكيلات لونية توحى بالحركة والعاطفة، وذلك من مجرد الربط بينها.

ذكريات ملونة :

ومضى الزوجان يعملان ويعرضان جنبًا إلى جنب، وفى برلين عام ١٩١٣ أقاما معرضًا تضمن عشرين عملاً من أعمال سونيا، ومنها تصميمات لونية مجردة لتزيين ديوان الشاعر الفرنسالكبير بليز سندراريس، ومع روبير سافرت سونيا إلى أسبانيا عام ١٩١٥، حيث أيقظت فيها الضياء الداكنة ذكرياتها عن قريتها التى ولدت بها فصورت مجموعة من الأعمال التى يمكن تسميتها، «بالذكريات الملونة»، كما انفعلت سونيا ديلوناى فى البرتغال التى انتقلت إليها بعد أسبانيا بالملابس الشعبية، وأوحت لها ببعض اللوحات البراقة، وشجعتها على أن تولى اهتمامًا أوسع لأنشطتها كمزخرفة ومصممة ديكور وملابس، وفى مدريد استلهمت الرقصات الإسبانية فى تصوير بعض اللوحات بالألوان المائية، عالجت فيها على نحو تجريدى الروابط بين الألوان فى خضم الحركة، وفى تتابعها وانعكاسها على بعضها وتداخلها، وعندما التقت

بـديـاجيليف (١٨٧٢ - ١٩٢٩)، كلفهـا بتصميم الملابس لبـاليـه «كليوباترا» كما كلف روبير ديلونای بأن يصمم ديكورات هذا الباليه، وهكذا أسهم الزوجان المتحابان فی عمل فنی مشترك، وذلك من منطلق مفاهيم جمالية متحدة، وقد عرف ديا جيليف بحسه المرهف واختياره أنبغ مصورى الفن الحديث فی تصميم باليهاته، ولهذا جاءت هذه الباليهات آية من الروعة ونقلت إلى الجماهير لا ما فی الرقص والموسيقى فحسب من جمال وبهجة، بل وما فی التصوير والألوان من ذلك أيضا، محققًا مطمحًا كبيرًا وهو «وحدة الفنون وتآلفها».

وعندما عادت سونيا ديلونای مع زوجها إلى باريس قررت أن تكرس وقتًا أطول وجهدًا أكبر من أجل تطبيق مفـاهيمها الجمـالية فی مجـال «الأزياء» فأحدثت انقلابا حقيقيًّا فی مجـال «الطبـاعة عـلى النسيج» بأشكالها الهندسية التی أحلتها محل التشكيلات التقليـدية، وقـد بددت الفتور والكآبة اللذين خيما على الأقمشة النسائية بتصميماتها الجـريئة ذات المسطحات الرحيبة الملونـة بألـوان مثيرة فی تضـاربها وتنغيمـاتها المتنافرة الصادفة للعين والملفتة للنظر، دون خدش للذوق على أی حال، فعلى الرغم من الجرأة والصراحة والمباشرة التی اتصفت بها تصميمات سونيا ديلونای إلا أنها ظلت تصميمات على قدر كبير من رهافة الحس وسلامة الذوق، وماذا ينتظر غير ذلك من فنانة كبيرة تشـربت مفاهيم الفن الحديث بما أحدثته من تغيير جذرى فی الذوق العصرى أيضًا؟ وقد كانت سونيا تقول: «آن للحياة اليومية أن تتشرب بالذوق العصرى، إن الفن الحديث لم يجهد نفسه كی يظل حبيس المراسم والمعارض بل كی ينطلق ليضع بصماته على أشياء الحياة اليومية»، وقد أقبلت دور الأزياء

الكبيرة على تصميمات سونيا ديلوناى، ووصلت مبتكراتها إلى قاعدة جماهير المستهلكين العريضة، وليس بمستبعد أن تلتقى أى سيدة أنيقة من سيداتنا. وهى تنتقى قماشًا لفستان جديد، أو وهى تختار ثوبًا لاستعمالاتها اليومية - ليس بمستبعد أن تلتقى بتصميم لسونيا ديلوناى، ولئن كانت السيدة المشترية لن تقرأ توقيع الفنانة على الثوب أو القماش إلا أنه ليس من الصعب أن تتعرف على بصمتها.

آثرت التفرغ:

وعندما رأت سونيا أن هذا النشاط التجارى قد أخذ يستغرق وقتها كله، ولا يدع فرصة لها كى تفرغ لتجاربها التشكيلية البحتة، وهى متطلبات روحية لا تستغنى عنها فنانة أوتيت رهافة حس، وتوقد قريحة، مثل فنانتنا، آثرت أن تكف عن ذلك، وتكرس نفسها لفنها، على أن التطبيقات العملية لأفكارها التشكيلية قد أبانت عن أهميتها، وعلى الأخص عن قيمتها المعمارية، وقد تسنى لسونيا ديلوناى أن تستعرض صلاحيات أسلوبها فى التصوير الحائطى بمناسبة المعرق الدولى الذى أقيم فى باريس عام ١٩٣٧، وقد عهد إليها فى هذا المعرض الحافل أن تزين حوائط قاعة الطيران وقاعة السكك الحديدية فأجادت أيما إجادة من خلال أسلوبها المنفتح وألوانها المتحركة.

وقبيل غزو النازيين لفرنسا عام ١٩٤٠ تمكنت سونيا ديلوناى وزوجها من الفرار من باريس إلا أن المرض ما لبث أن داهم روبير فمات عام ١٩٤١ وترك سونيا لتجتاز مرحلة من التأمل البحت، وفى جنوب فرنسا حيث اعتصمت ، صورت عام ١٩٤٢ سلسلة من لوحات رهيفة

منغمة، تنبض بأحاسيس الفراق وذكريات أيام الكفاح المشترك من أجل تجديد الذوق الحديث، واطلاعه على إمكانات جمالية خارج النقل الحرفى للطبيعة، وبعد الحرب أسهمت سونيا فى إقامة «صالون الحقائق الجديدة»، وهو من الأفكار التى كان قد نادى بها روبير ديلوناى منذ عام ١٩٣٠، وفى هذا الصالون تجمع المصورون التجريديون من مختلف أنحاء العالم، وعرضوا أعمالهم جنبًا إلى جنب، مما أثرى الحركة التجريدية، وفتح أمامها آفاقا جديدة يمكن البلوغ إليها.

وفى عام ١٩٥٣ آن الأوان أن يقام معرض شامل لأعمال سونيا ديلوناى الفنانة التى على الرغم من الزهد الذى اتصفت به لوحاتها، لم تقل ثراء أو عمقًا عن أكثر الفنانين اغترافًا من الطبيعة، ونقلًا لظواهرها.